حكايات شعبية روسية

رسوم الفنان إيفان بيليبين

المحتويات

الملكة الضفدعة 3

الدجاجة الرقشاء 19

اللفتة 20

فاسيليسا ست الحسن 21

القرس سفكا- بوركا 40

الكن الصغير 49

القرص المدور 53

بأمر السمكة السحرية 58

فتاة الثلج 72

كلمة عن الفنان بيليبين 79

فَاسِيلِيسَا سِتُ الْحُسْنِ

كَانَ يَامَا كَانَ فِي إِحْدَى الْمَمَالِكِ تَاجِرٌ مِنَ التُّجَارِ . عَاشَ عِشْرِينَ عَاماً مَعَ زَوْجَتِهِ ، فَلَمْ يُنْجِبْ مِنْهَا سِوَى ابْنَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَاسِيلِيسَا سِتِ الْحُسْنِ. كَانَتْ فِي الثَّامِنَةِ مِنَ الْعُمْرِ عِنْدَمَا تُوُفِّيَتْ أُمُّهَا . وَقَبْلَ أَنْ تُتَوَفَّى الأُمُّ نَادَتْ ابْنَتَهَا ، وَأَخْرَجَتْ مِنْ تَحْتِ الْغِطَاءِ عَرُوسَةً وَأَعْطَتْهَا لَهَا وَهِيَ تَقُولُ :

— اسْمَعِي يَا فَاسِيلِيسُوشْكَا ! تَذَكَّرِي آخِرَ كَلِمَاتِي وَاعْمَلِي بِهَا . أُعْطِيكِ مَعَ بَرَكَاتِ الأُمِّ هَذِهِ الْعَرُوسَةَ . احْمِلِيهَا دَائِماً مَعَكِ وَلاَ تَجْعَلِي أَحَداً يَرَاهَا . وَعِنْدَمَا تَحِلُّ بِكِ مُصِيبَةٌ أَطْعِمِيهَا وَاسْأَلِيهَا النَّصِيحَةَ . فَبَعْدَ أَنْ تَأْكُلَ سَتَقُولُ لَكِ كَيْفَ تَتَغَلَّبِينَ عَلَى الْمَصَابِ .

ثُمَّ قَبَّلَتِ الأُمُّ ابْنَتَهَا وَأَسْلَمَتِ الرُّوحَ .

حَزِنَ التَّاجِرُ لِمَوْتِ زَوْجَتِهِ كَمَا هِيَ الْعَادَةُ ، ثُمَّ رَاحَ يُفَكِّرُ فِي الزَّوَاجِ ثَانِيَةً . كَانَ شَخْصاً مَرْمُوقاً فَلَمْ يُوَاجِهْ مُشْكِلَةً فِي الْعُثُورِ عَلَى عَرُوسٍ ، لَكِنَّهُ مَالَ أَكْثَرَ إِلَى إِحْدَى الأَرَامِلِ .

لَمْ تَكُنْ صَغِيرَةَ السِّنِ ، وَكَانَ لَدَيْهَا ابْنَتَانِ ، فِي سِنِّ فَاسِيلِيسَا تَقْرِيباً ، وَإِذَنْ فَهِيَ رَبَّةُ بَيْتٍ وَأُمٌّ مُجَرَّبَةٌ . تَزَوَّجَ التَّاجِرُ مِنَ الأَرْمَلَةِ ، وَلَكِنَّهُ خُدِعَ فِيهَا،إِذْ لَمْ يَجِدْ فِيهَا أُمًّا طَيِّبَةً لابْنَتِهِ . كَانَتْ فَاسِيلِيسَا أَجْمَلَ حَسْنَاوَاتِ الْقَرْيَةِ ، فَغَارَتْ زَوْجَةُ الأَبِ وَابْنَتَاهَا مِنْ جَمَالِهَا ، وَأَثْقَلَتْ عَلَيْهَا بِالأَعْبَاءِ، لِكَي يَهْزُلَ بَدَنُهَا مِنَ الْكَدِّ وَتَسْوَدَّ بَشَرَتُهَا مِنَ الشَّمْسِ وَالرِّيحِ . لَكِنَّ فَاسِيلِيسَا تَحَمَّلَتْ كُلَّ شَيْءٍ دُونَ تَذَمُّرٍ ، وَكَانَتْ مَعَ كُلِّ يَوْمٍ تَزْدَادُ جَمَالاً وَامْتِلاءً ، بَيْنَمَا تَزْدَادُ زَوْجَةُ الأَبِ وَابْنَتَاهَا هُزَالاً وَحِقْداً ، رَغْمَ أَنَّهُنَّ كُنَّ يَجْلِسْنَ عَاطِلاتٍ عَنِ الْعَمَلِ كَالسَّيِّدَاتِ الْمُعَزَّزَاتِ . فَكَيْفَ أَمْكَنَ أَنْ تَسْتَمِرَّ الحالُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ؟ الْعَرُوسَةُ هِيَ الَّتِي سَاعَدَتْ فَاسِيلِيسَا . وَلَوْلاَهَا لَمَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُؤَدِّيَ كُلَّ تِلْكَ الأَعْمَالِ . وَفِي الْمُقَابِلِ كَانَتْ فَاسِيلِيسَا تَحْرِمُ نَفْسَهَا مِنَ الأَكْلِ أَحْيَانًا وَتُقَدِّمُ لِعَرُوسَتِهَا أَفْضَلَ طَعَامِهَا . وَفِي الْمَسَاءِ ، بَعْدَ أَنْ يَهْجَعَ الْجَمِيعُ ، تُغْلِقُ عَلَى نَفْسِهَا غُرْفَةَ الْكَرَارِ الضَّيِّقَةَ الَّتِي تَعِيشُ فِيهَا ، وَتُطْعِمُ عَرُوسَتَهَا قَائِلَةً : « كُلِي يَا عَرُوسَتِي .. وَاسْمَعِي شِكَايَتِي .. أَعِيشُ فِي بَيْتِ أَبِي فَلاَ أَشْعُرُ فِيهِ بِأَيِّ فَرْحَةٍ. زَوْجَةُ أَبِي الشِّرِّيرَةُ تَسْعَى لإِبَادَتِي . دُلِّينِي كَيْفَ أَحْيَا وَمَا الْعَمَلُ .

وَتَأْكُلُ الْعَرُوسَةُ ثُمَّ تُعْطِيهَا النَّصَائِحَ وَتُخَفِّفُ عَنْهَا بَلْوَاهَا ، وَحِينَ يَحِلُّ الصَّبَاحُ تَكُونُ قَدْ أَنْجَزَتْ كُلَّ الأَعْمَالِ نِيَابَةً عَنْ فَاسِيلِيسَا ، فَلاَ يَبْقَى لِهَذِهِ إِلاَّ أَنْ تَجْلِسَ فِي الظِّلِّ وَتَقْطِفَ الأَزْهَارَ ، بَيْنَمَا تَكُونُ الأَرْضُ قَدْ حُرِثَتْ ، وَالْكُرُنْبُ تَمَّ سَقْيُهُ ، وَالْفُرْنُ أُشْعِلَتْ نَارُهُ . ثُمَّ تَدُلُّهَا الْعَرُوسَةُ عَلَى الْعُشْبِ الَّذِي يَحْمِيهَا مِنْ لَفْحِ الشَّمْسِ .كَانَتْ الْحَيَاةُ مَعَ الْعَرُوسَةِ هَنِيئَةً مَرِيئَةً.

مَرَّتْ الأَعْوَامُ ، وَكَبُرَتْ فَاسيلِيسَا وَأَصْبَحَتْ عَرُوساً ، وَرَاحَ الْخُطَّابُ يَخْطِبُونَهَا ، غَيْرَ مُبَالِينَ بِابْنَتِي زَوْجَةِ الأَبِ ، فَيَزْدَادُ حِقْدُهَا عَلَى فَاسيلِيسَا ، وَتَقُولُ لِلْخُطَّابِ « لاَ أُعْطِي الصَّغِيرَةَ قَبْلَ الْكَبِيرَةِ » . وَبَعْدَ أَنْ تَصْرِفَ الْخُطَّابَ تَنْهَالُ ضَرْباً عَلَى فَاسيلِيسَا لِتَشْفِي غَلِيلَهَا .

وَذَاتَ يَوْمٍ رَحَلَ التَّاجِرُ عَنْ بَيْتِهِ فِي غَيْبَةٍ طَوِيلَةٍ لِشُؤُونِ تِجَارَتِهِ ، فَانْتَقَلَتْ زَوْجَةُ الأَبِ لِلْمَعِيشَةِ فِي مَنْزِلٍ آخَرَ . وَكَانَتْ بِالْقُرْبِ مِنْ هَذَا الْمَنْزِلِ غَابَةٌ عَذْرَاءُ كَثِيفَةٌ ، وَفِي فَسْحَةٍ فِي الْغَابَةِ قَامَ مَنْزِلٌ خَشَبِيٌّ تَعِيشُ فِيهِ سَاحِرَةٌ عَجُوزٌ . لَمْ تَكُنْ تَسْمَحُ لأَحَدٍ بِالاقْتِرَابِ مِنْ مَسْكَنِهَا ، وَكَانَتْ تَأْكُلُ النَّاسَ كَمَا تُؤْكَلُ الْفِرَاخُ . وَبَعْدَ الانْتِقَالِ إِلَى الْمَنْزِلِ الْجَدِيدِ أَخَذَتْ زَوْجَةُ الأَبِ تُرْسِلُ فَاسيلِيسَا التَّعِيسَةَ إِلَى الْغَابَةِ لِقَضَاءِ بَعْضِ الْحَاجَاتِ . وَلَكِنَّ فَاسيلِيسَا تَرْجِعُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ سَالِمَةً غَانِمَةً ، إِذْ كَانَتْ الْعَرُوسَةُ تَدُلُّهَا عَلَى الطَّرِيقِ وَلاَ تَجْعَلُهَا تَقْتَرِبُ مِنْ بَيْتِ السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ .

وَحَلَّ الْخَرِيفُ . وَجَاءَتْ زَوْجَةُ الأَبِ فَوَزَّعَتْ عَلَى الْبَنَاتِ الثَّلاَثِ وَاجِبَاتٍ مَسَائِيَّةً ، فَكَلَّفَتْ إِحْدَاهُنَّ بِنَسْجِ شَرِيطٍ دَنْتِلاً ، وَالثَّانِيَةَ بِحِيَاكَةِ جَوْرَبٍ ، وَكُلِّفَتْ فَاسيلِيسَا بِغَزْلِ خُيُوطٍ . وَأَطْفَأَتْ الأَنْوَارَ فِي الْمَنْزِلِ كُلِّهِ ، وَتَرَكَتْ شَمْعَةً وَاحِدَةً مُشْتَعِلَةً فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَعْمَلُ فِيهِ الْبَنَاتُ . وَتَرَاكَمَ الْهِبَابُ عَلَى فَتِيلِ الشَّمْعَةِ فَقَامَتْ إِحْدَى ابْنَتَيْ زَوْجَةِ الأَبِ لِتُزِيلَهُ بِإِبَرِ الْغَزْلِ ، وَلَكِنَّهَا بِنَاءً عَلَى أَوَامِرِ أُمِّهَا ، أَطْفَأَتْ الشَّمْعَةَ وَكَأَنَّمَا عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ . وَقَالَتْ الْبِنْتَانِ :

— وَمَا الْعَمَلُ الآنَ ؟ لاَ نَارَ فِي الْبَيْتِ كُلِّهِ ، بَيْنَمَا لَمْ نُنْجِزْ وَاجِبَاتِنَا . يَنْبَغِي الذَّهَابُ إِلَى

السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ لإِحْضَارِ نَارٍ مِنْ عِنْدِهَا .

فَقَالَتْ الإِبْنَةُ الَّتِي تَنْسِجُ الدَّانْتِلاَّ :

— الدَّبَابِيسُ عِنْدِي تَعْكِسُ الضَّوْءَ ، فَلَنْ أَذْهَبَ .

وَقَالَتْ الَّتِي كَانَتْ تَحِيكُ الْجَوْرَبَ :

— الإِبَرُ عِنْدِي تَعْكِسُ الضَّوْءَ ، فَلَنْ أَذْهَبَ .

وَصَاحَتْ الْبِنْتَانِ :

— عَلَيكِ أَنْتِ أَنْ تُحْضِرِي النَّارَ ! إِذْهَبِي إِلَى السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ !

وَدَفَعَتَا فَاسِيلِيسَا فَأَخْرَجَتَاهَا مِنْ الْغُرْفَةِ .

ذَهَبَتْ فَاسِيلِيسَا إِلَى غُرْفَةِ الْكِرَارِ ، وَوَضَعَتْ الْعَشَاءَ الْجَاهِزَ أَمَامَ الْعَرُوسَةِ ،

وَقَالَتْ لَهَا :

— كُلِي يَا عَرُوسَتِي ، وَاسْمَعِي شِكَايَتِي . إِنَّهُمْ يُرْسِلُونَنِي لإِحْضَارِ النَّارِ مِنْ عِنْدِ السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ ، وَهِيَ سَوْفَ تَأْكُلُنِي .

أَكَلَتْ الْعَرُوسَةُ ، وَاشْتَعَلَتْ عَيْنَاهَا مِثْلَ شَمْعَتَيْنِ ، وَقَالَتْ :

— لاَ تَخَافِي يَافَاسِيلِيسُوشْكَا ، اذْهَبِي إِلَى حَيْثُ يَأْمُرُونَكِ وَلَكِنْ احْمِلِينِي دَائِماً مَعَكِ . طَالَمَا أَنَا مَعَكِ لَنْ تُؤْذِيَكِ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ .

اسْتَعَدَّتْ فَاسِيلِيسَا ، وَدَسَّتْ عَرُوسَتَهَا فِي جَيْبِهَا وَتَوَجَّهَتْ إِلَى الْغَابَةِ الْعَذْرَاءِ .

سَارَتْ وَهْيَ تَرْتَجِفُ . وَفَجْأَةً عَدَا بِجِوَارِهَا فَارِسٌ يَمْتَطِي حِصَاناً . كَانَ كُلُّهُ أَبْيَضَ ، وَمَلاَبِسُهُ كُلُّهَا بَيْضَاءُ ، وَحِصَانُهُ أَبْيَضُ ، وَلِجَامُ الْحِصَانِ أَبْيَضُ ، فَحَلَّ الْفَجْرُ فِي الْكَوْنِ .

وَوَاصَلَتْ فَاسيليسَا سَيْرَهَا ، فَعَدَا فَارِسٌ آخَرُ عَلَى ظَهْرِ حِصَانِهِ . كَانَ أَحْمَرَ وَمَلاَبِسُهُ كُلُّهَا حَمْرَاءُ ، وَحِصَانُهُ أَحْمَرُ ، فَبَدَأَتْ الشَّمْسُ تُشْرِقُ .

سَارَتْ فَاسيليسَا اللَّيْلَ بِطُولِهِ وَالنَّهَارَ كُلَّهُ ، وَفِي الْمَسَاءِ فَقَطْ وَصَلَتْ إِلَى الْفَسْحَةِ الَّتِي فِي الْغَابَةِ حَيْثُ يَقُومُ مَنْزِلُ السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ . كَانَ السُّورُ الْمُحِيطُ بِالْمَنْزِلِ مَصْنُوعاً مِنَ عِظَامٍ بَشَرِيَّةٍ ، وَعَلَى السُّورِ عُلِّقَتْ جَمَاجِمُ بَشَرِيَّةٌ ذَاتُ أَعْيُنٍ .

وَبَدَلاً مِنْ عَمُودَيِ الْبَوَّابَةِ قَامَتْ سَاقَانِ بَشَرِيَّتَانِ ، وَبَدَلاً مِنَ الْمَزَالِيجِ وُضِعَتْ ذِرَاعَانِ، وَفَمٌ بِأَسْنَانٍ حَادَّةٍ بَدَلاً مِنَ الْقُفْلِ . جَمَّدَ الرُّعْبُ أَطْرَافَ فَاسيليسَا فَوَقَفَتْ بِلاَ حِرَاكٍ .

وَفَجْأَةً جَاءَ فَارِسٌ رَاكِضاً بِجَوَادِهِ . كَانَ أَسْوَدَ ، فِي ثِيَابٍ كُلُّهَا سَوْدَاءُ ، وَيَمْتَطِي جَوَاداً أَسْوَدَ . وَصَلَ إِلَى بَوَّابَةِ السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ ثُمَّ اخْتَفَى كَأَنَّمَا انْشَقَّتْ الأَرْضُ وَابْتَلَعَتْهُ ، فَحَلَّ اللَّيْلُ . لَكِنَّ الظَّلاَمَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ انْقَشَعَ . فَقَدْ أَضَاءَتْ جَمِيعُ عُيُونِ الْجَمَاجِمِ عَلَى السُّورِ ، فَأَصْبَحَتْ فَسْحَةُ الْغَابَةِ مُنِيرَةً كَمَا فِي النَّهَارِ . كَانَتْ فَاسيليسَا تَرْتَعِشُ هَلَعاً ، وَلَمَّا كَانَتْ لاَ تَدْرِي إِلَى أَيْنَ تَمْضِي فَقَدْ بَقِيَتْ فِي مَكَانِهَا .

وَفَجْأَةً سُمِعَتْ فِي الْغَابَةِ ضَجَّةٌ هَائِلَةٌ ، وَأَخَذَتْ الأَشْجَارُ تُطَقْطِقُ ، وَالأَوْرَاقُ الْجَافَّةُ تُخَشْخِشُ ، وَخَرَجَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ مِنْ قَلْبِ الْغَابَةِ . كَانَتْ تَطِيرُ مُمْتَطِيَةً مِصْحَناً ، وَتُلَوِّحُ بِمِدَقَّةٍ ، وَتَكْنُسُ أَثَرَهَا بِمِكْنَسَةٍ . وَصَلَتْ إِلَى الْبَوَّابَةِ فَتَوَقَّفَتْ وَتَشَمَّمَتْ مَا حَوْلَهَا وَصَاحَتْ : إِفْ ، إِفْ ، يَا لَلْقَرَفِ ، أَشُمُّ رَائِحَةً رُوسِيَّةً ، مَنْ هُنَا ؟

اقْتَرَبَتْ فَاسيليسَا مِنَ الْعَجُوزِ وَقَالَتْ وَهِيَ تَنْحَنِي بِخَوْفٍ انْحِنَاءَةً عَمِيقَةً :

— هَذِهِ أَنَا يَا جَدَّتِي ! ابْنَتَا زَوْجَةِ أَبِي أَرْسَلَتَانِي إِلَيْكِ طَلَبًا لِلنَّارِ .

فَرَدَّتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ :

— حَسَناً ، إِنَّنِي أَعْرِفُهُما ، عِيشِي هُنَا وَابْقِي وَاعْمَلِي عِنْدِي ، وَعِنْدَئِذٍ أُعْطِيكِ النَّارَ .

فَإِذَا رَفَضْتِ فَسَآكُلُكِ .

ثُمَّ خَاطَبَتْ الْبَوَّابَةَ صَائِحَةً :

— يَا أَقْفَالِي الْقَوِيَّةَ انْفَتِحِي ، وَيَا بَوَّابَتِي الْعَرِيضَةَ انْفَرِجِي !

فَانْفَرَجَ مِصْرَاعا الْبَوَّابَةِ ، وَدَخَلَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ وَهْيَ تُصَفِّرُ ، وَتَبِعَتْهَا فَاسِيلِيسَا ، ثُمَّ انْغَلَقَتْ الْمَصَارِيعُ وَ الأَقْفَالُ . وَدَخَلَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ وَتَمَدَّدَتْ ، ثُمَّ قَالَتْ لِفَاسِيلِيسَا: هَاتِي هُنَا مَا هُوَ فِي الْفُرْنِ ، فَأَنَا جَائِعَةٌ .

أَشْعَلَتْ فَاسِيلِيسَا شِظْيَةً مِنَ نَارِ تِلْكَ الْجَمَاجِمِ الْمُعَلَّقَةِ عَلَى السُّورِ ، وَأَخَذَتْ تَسْتَخْرِجُ مَا فِي بَاطِنِ الْفُرْنِ وَتَضَعُهُ أَمَامَ السَّاحِرَةِ . كَانَ الطَّعَامُ يَكْفِي لِعَشْرَةِ أَشْخَاصٍ . وَمِنَ الْقَبْوِ حَمَلَتْ فَاسِيلِيسَا شَرَابَ الْكَفَاسِ وَالْعَسَلَ وَالْجِعَةَ وَالنَّبِيذَ . فَالْتَهَمَتْ الْعَجُوزُ كُلَّ الطَّعَامِ وَشَرِبَتْ كُلَّ الشَّرَابِ ، وَلَمْ تَتْرُكْ لِفَاسِيلِيسَا سِوَى قَلِيلٍ مِنَ الْحَسَاءِ وَكِسْرَةِ خُبْزٍ وَقِطْعَةِ لَحْمٍ صَغِيرَةٍ . اسْتَلْقَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ لِلنَّوْمِ وَهِيَ تَقُولُ :

— اسْمَعِي ، عِنْدَمَا أَرْحَلُ غَداً نَظِّفِي الْفِنَاءَ ، وَاكْنُسِي الْمَنْزِلَ وَجَهِّزِي الْغَدَاءَ ، وَافْرِشِي الْمِلاءَاتِ ، وَاذْهَبِي إِلَى مَخْزَنِ الْغِلالِ فَخُذِي رُبْعَ قَدَحٍ مِنَ الْقَمْحِ وَنَقِّيهِ مِنَ الشَّوَائِبِ . حَذَارِ أَنْ تُهْمِلِي فِي شَيْءٍ وَإِلاَّ أَكَلْتُكِ .

وَبَعْدَ هَذِهِ الْوِصَايَا انْطَلَقَ شَخِيرُ السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ ، أَمَّا فَاسِيلِيسَا فَوَضَعَتْ فَتَاتَ مَائِدَةِ الْعَجُوزِ أَمَامَ الْعَرُوسَةِ وَأَجْهَشَتْ بِالْبُكَاءِ وَهِيَ تَقُولُ :

— كُلِي يَا عَرُوسَتِي ، وَاسْمَعِي شِكَايَتِي .. السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ حَمَّلَتْنِي عِبْئاً ثَقِيلاً، وَتُهَدِّدُ بِأَكْلِي إِذَا لَمْ أُنْجِزْ كُلَّ شَيْءٍ .. سَاعِدِينِي !

فَقَالَتْ الْعَرُوسَةُ :

— لاَ تَخَافِي يَا فَاسِلِيسَا سِتَ الْحُسْنِ .. هَيَّا تَعَشَّي وَصَلِّي وَنَامِي .. الصَّبَاحُ رَبَاحْ .

اسْتَيْقَظَتْ فَاسِيلِيسَا مِنَ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ فَرَأَتْ أَنَّ السَّاحِرَةَ الْعَجُوزَ اسْتَيْقَظَتْ قَبْلَهَا.وَنظَرَتْ فَاسِيلِيسَا مِنَ النَّافِذَةِ . كَانَتْ عُيُونُ الْحَمَاجِمِ يَخْبُو ضَوْؤُهَا . وَهَا قَدْ عَبَرَ الْفَارِسُ الأَبْيَضُ فَأَشْرَقَ الْفَجْرُ . وَخَرَجَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ وَصَفَّرَتْ ، فَظَهَرَ أَمَامَهَا الْمِصْحَنِ وَالْمِدَقَّةُ وَالْمِكْنَسَةُ . وَمَرَقَ الْفَارِسُ الأَحْمَرُ فَطَلَعَتِ الشَّمْسُ . جَلَسَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ فِي الْمِصْحَنِ وَغَادَرَتْ الدَّارَ وَهْيَ تُلَوِّحُ بِالْمِدَقَّةِ ، وَتَكْنُسُ أَثَرَهَا بِالْمِكْنَسَةِ . وَبَقِيَتْ فَاسِيلِيسَا وَحْدَهَا ، فَتَفَقَّدَتْ بَيْتَ السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ، وَأَدْهَشَتْهَا كَثْرَةُ خَيْرَاتِهِ ، وَوَقَفَتْ حَائِرَةً تُفَكِّرُ بِأَيِّ عَمَلٍ تَبْدَأُ . تَطَلَّعَتْ حَوْلَهَا فَإِذَا كُلُّ الأَعْمَالِ أُنْجِزَتْ ، وَكَانَتْ الْعَرُوسَةُ تَلْتَقِطُ آخِرَ شَائِبَةٍ مِنْ بَيْنِ حَبَّاتِ الْقَمْحِ . فَهَتَفَتْ فَاسِيلِيسَا قَائِلَةً لِعَرُوسَتِهَا : شُكْراً لَكِ يَا مُخَلِّصَتِي . لَقَدْ أَنْقَذْتِنِي مِنْ بَلْوِي .

فَأَجَابَتْهَا الْعَرُوسَةُ وَهِيَ تَدْخُلُ فِي جَيْبِهَا :

— لَمْ يَبْقَ لَكِ إِلاَّ تَجْهِيزُ الْغَدَاءِ . جَهِّزِيهِ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ ثُمَّ اسْتَرِيحِي قَدْرَ مَا تَشَائِينَ .

قُرْبَ الْمَسَاءِ أَعَدَّتْ فَاسِيلِيسَا الْمَائِدَةَ وَجَلَسَتْ تَنْتَظِرُ عَوْدَةَ السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ . وَحَلَّ الْغَسَقُ ، وَمَرَقَ وَرَاءَ الْبَوَّابَةِ فَارِسٌ أَسْوَدُ فَهَبَطَ الظَّلاَمُ الدَّامِسُ ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ ضَوْءٌ سِوَى بَرِيقِ عُيُونِ الْحَمَاجِمِ . طَقْطَقَتْ الأَشْجَارُ وَحَشْحَشَتِ الأَوْرَاقُ ..

إِنَّهَا السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ قَادِمَةٌ . فَنَهَضَتْ فَاسِيلِيسَا لِاسْتِقْبَالِهَا . سَأَلَتْهَا الْعَجُوزُ :

— هَلْ عَمِلْتِ كُلَّ شَيْءٍ ؟

فَقَالَتْ فَاسِيلِيسَا :

— تَفَضَّلِي وَتَحَقَّقِي بِنَفْسِكِ يَا جَدَّتِي .

وَتَحَقَّقَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ وَاسْتَاءَتْ ، لأَنَّهَا لَمْ تَجِدْ مَا تُؤَنِّبُهَا عَلَيْهِ ، فَقَالَتْ : « طَيِّبْ ، حَسَناً » . ثُمَّ صَاحَتْ :

— يَا خَدَمِيَ الْمُطِيعِينَ ، يَا أَصْدِقَائِيَ الْمُخْلِصِينَ ، اطْحَنُوا قَمْحِي !

فَظَهَرَتْ ثَلاثَةُ أَزْوَاجٍ مِنَ الأَيْدِي ، وَالْتَقَطَتْ الْقَمْحَ ، وَحَمَلَتْهُ بَعِيداً عَنِ الأَعْيُنِ . وَأَكَلَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ حَتَّى الشِّبَعِ وَتَمَدَّدَتْ لِتَنَامَ ، وَمِنْ جَدِيدٍ أَصْدَرَتْ أَوَامِرَهَا لِفَاسِيلِيسَا :

— اعْمَلِي غَداً مَا عَمِلْتِهِ الْيَوْمَ ، وَعَلاوَةً عَلَيْهِ خُذِي مِنَ الْمَخْزَنِ بُذُورَ الْخَشْخَاشِ ، وَنَقِّيهَا بِذْرَةً بِذْرَةً مِنَ الشَّوَائِبِ الَّتِي أَلْقَاهَا فِيهَا أَحَدُ الأَشْرَارِ .

قَالَتْ الْعَجُوزُ ذَلِكَ وَاسْتَدَارَتْ إِلَى الْحَائِطِ وَعَلا شَخِيرُهَا . أَمَّا فَاسِيلِيسَا فَأَخَذَتْ تُطْعِمُ عَرُوسَتَهَا . وَبَعْدَ أَنْ أَكَلَتْ الْعَرُوسَةُ قَالَتْ لَهَا كَمَا بِالأَمْسِ :

— صَلِّي لِلهِ وَنَامِي . الصَّبَاحُ رَبَاحْ . كُلُّ شَيْءٍ سَيُنْجَزُ يَا فَاسِيلِيسُوشْكَا .

وَفِي الصَّبَاحِ غَادَرَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ الدَّارَ فِي الْمِصْحَنِ مِنْ جَدِيدٍ . وَقَامَتْ فَاسِيلِيسَا وَالْعَرُوسُ بِإِنْجَازِ كُلِّ الأَعْمَالِ فَوْراً . وَعِنْدَمَا عَادَتْ الْعَجُوزُ وَتَفَحَّصَتْ كُلَّ شَيْءٍ صَاحَتْ :

— يَا خَدَمِي الْمُطِيعِينَ ، يَا أَصْدِقَائِي الْمُخْلِصِينَ ، اعْصُرُوا مِنْ بُذُورِ الْخَشْخَاشِ زَيْتاً .

وَظَهَرَتْ ثَلاَثَةُ أَزْوَاجٍ مِنَ الأَيْدِي وَالْتَقَطَتْ الْخَشْخَاشَ وَحَمَلَتْهُ بَعِيداً عَنِ الأَعْيُنِ . وَجَلَسَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ لِلْغَدَاءِ . وَوَقَفَتْ فَاسيليسَا صَامِتَةً . فَقَالَتْ لَهَا السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ :

— لِمَاذَا لاَ تَتَحَدَّثِينَ مَعِي ؟ مَالَكِ تَقِفِينَ كَالْحَرْسَاءِ !

فَرَدَّتْ فَاسيليسَا :

— لَمْ أَجْرُؤْ ، وَلَكِنْ إِذَا سَمِحْتِ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكِ عَنْ شَيْءٍ .

فَقَالَتْ الْعَجُوزُ :

— اسْأَلِي وَلَكِنْ اعْلَمِي : لَيْسَ كُلُّ سُؤَالٍ يُصْلِحُ الْحَالْ ، وَمَنْ يَعْرِفْ كَثِيراً يَهْرَمْ سَرِيعاً .

فَقَالَتْ فَاسِيلِيسَا :

— أَنَا أُرِيدُ فَقَطْ أَنْ أَسْأَلَكِ يَا جَدَّتِي عَمَّا رَأَيْتُهُ . فَفِي طَرِيقِي إِلَيْكِ تَجَاوَزَنِي فَارِسٌ عَلَى جَوَادٍ أَبْيَضَ وَهُوَ نَفْسُهُ أَبْيَضُ ، فِي مَلاَبِسَ بَيْضَاءَ ، فَمَنْ هُوَ ؟ .

فَأَجَابَتْهَا السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ :

— إِنَّهُ يَوْمِي الْمُشْرِقُ .

— ثُمَّ تَجَاوَزَنِي فَارِسٌ آخَرُ عَلَى حِصَانٍ أَحْمَرَ ، وَهُوَ نَفْسُهُ أَحْمَرُ فِي مَلاَبِسَ كُلُّهَا حَمْرَاءُ ، فَمَنْ هُوَ ؟ .

فَأَجَابَتْهَا السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ :

— إِنَّهُ شَمْسِي الْجَمِيلَةُ .

— فَمَا مَعْنَى الْفَارِسِ الأَسْوَدِ الَّذِي تَحَاوَزَنِي عِنْدَ بُوَّابَتِكِ يَا جَدَّتِي ؟

فَأَجَابَتْهَا السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ :

— إِنَّهُ لَيْلِي الأَسْوَدُ ، وَكُلُّهُمْ خَدَمِي الْمُخْلِصُونَ .

تَذَكَّرَتْ فَاسِيلِيسَا أَزْوَاجَ الأَذْرُعِ الثَّلاَثَةِ وَلَكِنَّهَا صَمَتَتْ . فَقَالَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ :

— وَلِمَاذَا لاَ تُوَاصِلِينَ السُّؤَالَ ؟

فَقَالَتْ فَاسِيلِيسَا :

— يَكْفِينِي هَذَا ، أَلَمْ تَقُولِي : مَنْ يَعْرِفْ كَثِيراً يَهْرَمْ سَرِيعاً ؟

فَرَدَّتْ الْعَجُوزُ :

— حَسَناً أَنَّكِ لَمْ تَسْأَلِي إِلاَّ عَمَّا رَأَيْتِهِ خَارِجَ الْبَيْتِ وَلَيْسَ عَمَّا بِدَاخِلِهِ !

أَنَا لاَ أُحِبُّ هَتْكَ أَسْرَارَ الْبُيُوتِ ، أَمَّا ذَوُو الْفُضُولِ الزَّائِدِ فَأَكْلُهُمْ . وَالآنَ أَنَا أَسْأَلُكِ : كَيْفَ تَتَمَكَّنِينَ مِنْ أَدَاءِ الأَعْمَالِ الَّتِي أُكَلِّفُكِ بِهَا ؟

فَأَجَابَتْ فَاسِيلِيسَا :

— بَرَكَاتُ أُمِّي تُسَاعِدُنِي .

فَقَالَتْ الْعَجُوزُ بِغَضَبٍ :

— اسْمَعِي إِذَنْ أَيَّتُهَا الإِبْنَةُ الْمُبَارَكَةُ ، اغْرُبِي عَنْ وَجْهِي ، لَسْتُ بِحَاجَةٍ إِلَى الْمُبَارَكِينَ !

وَشَدَّتْ فَاسِيسَا مِنْ يَدِهَا وَأَلْقَتْ بِهَا خَارِجَ الْفِنَاءِ ، وَنَزَعَتْ مِنَ السُّورِ جُمْجُمَةً بِعَيْنَيْنِ

مُشْتَعِلَتَيْنِ ، وَغَرَزَتْهَا فِي عَصًا وَأَعْطَتْهَا لَهَا قَائِلَةً :

— هَذِهِ هِيَ النَّارُ الَّتِي طَلَبْتِهَا لابْنَتِي زَوْجَةِ أَبِيكِ ، خُذِيهَا ، أَلَمْ يُرْسِلُوكِ مِنْ أَجْلِهَا ؟

انْطَلَقَتْ فَاسِيلِيسَا رَاكِضَةً فِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ عَلَى ضَوْءِ الْجُمْجُمَةِ الَّذِي لَمْ يَنْطَفِئْ إِلاَّ مَعَ مَجِيءِ الصَّبَاحِ ، وَلَمْ تَصِلْ إِلَى الْبَيْتِ إِلاَّ فِي مَسَاءِ الْيَوْمِ التَّالِي . وَعِنْدَمَا بَلَغَتْ الْبَوَّابَةَ أَرَادَتْ أَنْ تُلْقِيَ بِالْجُمْجُمَةِ وَهِيَ تَقُولُ لِنَفْسِهَا «لاَ شَكَّ أَنَّهُمْ فِي الْبَيْتِ لَمْ يَعُودُوا بِحَاجَةٍ إِلَى النَّارِ» وَلَكِنَّهَا سَمِعَتْ فَجْأَةً صَوْتاً أَجَشَّ صَادِراً عَنِ الْجُمْجُمَةِ : «لاَ تُلْقِي بِي ، خُذِينِي إِلَى زَوْجَةِ الأَبِ» .

تَطَلَّعَتْ فَاسِيلِيسَا إِلَى بَيْتِ زَوْجَةِ أَبِيهَا ، وَلَمَّا لَمْ تَرَ ضَوْءاً فِي أَيَّةِ نَافِذَةٍ ، قَرَّرَتْ أَنْ تَذْهَبَ بِالْجُمْجُمَةِ إِلَى هُنَاكَ . وَلأَوَّلِ مَرَّةٍ يَسْتَقْبِلُونَهَا بِوُدٍّ ، وَأَخْبَرُوهَا أَنَّهُمْ ظَلُّوا بِلاَ نَارٍ مُنْذُ أَنْ رَحَلَتْ عَنْهُمْ ، إِذْ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ إِشْعَالِهَا ، أَمَّا النَّارُ الَّتِي كَانُوا يَأْخُذُونَهَا مِنَ الْجِيرَانِ فَكَانَتْ تَنْطَفِئُ مَا إِنْ يَدْخُلُوا بِهَا إِلَى الْغُرْفَةِ . وَقَالَتْ زَوْجَةُ الأَبِ: « عَسَى أَنْ تَبْقَى نَارُكِ مُشْتَعِلَةً ! وَجَاءُوا بِالْجُمْجُمَةِ إِلَى الْغُرْفَةِ الْكَبِيرَةِ ، فَسَلَّطَتْ الْجُمْجُمَةُ عَلَى زَوْجَةِ الأَبِ وَبِنْتَيْهَا نَظَرَاتٍ مُحْرِقَةً حَاوَلْنَ الاخْتِبَاءَ مِنْهَا وَلَكِنْ هَيْهَاتَ.

كَانَتْ الْعَيْنَانِ تَتَّبِعَانِهُنَّ حَيْثُمَا وَلَّيْنَ . وَفِي الصَّبَاحِ تَحَوَّلَتْ زَوْجَةُ الأَبِ وَبِنْتَاهَا إِلَى قِطَعِ فَحْمٍ ، أَمَّا فَاسِيلِيسَا فَلَمْ تُصَبْ بِأَذًى .

فِي الصَّبَاحِ دَفَنَتْ فَاسِيلِيسَا الْجُمْجُمَةَ وَأَوْصَدَتْ بَابَ الْبَيْتِ وَانْطَلَقَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ . وَطَلَبَتْ مِنْ عَجُوزٍ لاَ أَهْلَ لَهَا أَنْ تُقِيمَ مَعَهَا . وَعَاشَتْ مَعَهَا فِي انْتِظَارِ

عَوْدَةَ أَبِيهَا . وَذَاتَ يَوْمٍ قَالَتْ لِلْعَجُوزِ :

— أَشْعُرُ بِالضَّجَرِ يَا جَدَّتِي مِنْ قُعُودِي بِلاَ عَمَلٍ . إِذْهَبِي وَاشْتَرِي لِي كَتَّاناً مِنْ أَجْوَدِ الأَنْوَاعِ . فَلأَشْغَلْ نَفْسِي بِالْغَزْلِ .

وَاشْتَرَتْ الْعَجُوزُ كَتَّاناً جَيِّداً ، وَانْكَبَّتْ فَاسيليسَا عَلَى الْعَمَلِ ، فَسَارَ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ ، وَخَرَجَ الْخَيْطُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا مُسْتَوِياً وَدَقِيقاً كَالشَّعَرَةِ الرَّفِيعَةِ . وَتَجَمَّعَ غَزْلٌ كَثِيرٌ ، وَحَانَ الوَقْتُ لِنَسْجِهِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا نَوْلاً يَصْلُحُ لِغَزْلِ فَاسيليسَا وَلاَ أَحَداً يَقْبَلُ بِنَسْجِ الغَزْلِ . وَتَوَجَّهَتْ فَاسيليسَا بِالسُّؤَالِ إِلَى عَرُوسَتِهَا فَأَجَابَتْهَا :

— هَاتِي لِي أَيَّ نَوْلٍ قَدِيمٍ ، وَمَكُّوكاً قَدِيماً وَعُرْفَ حِصَانٍ ، وَسَأَصْنَعُ لَكِ مَا تُرِيدِينَ .

حَصَلَتْ فَاسيليسَا عَلَى المَطْلُوبِ وَذَهَبَتْ لِتَنَامَ ، أَمَّا العَرُوسَةُ فَصَنَعَتْ خِلاَلَ اللَّيْلِ آلَةَ نَسِيجٍ رَائِعَةً . وَبِنِهَايَةِ الشِّتَاءِ أَتَمَّتْ نَسْجَ قُمَاشٍ رَقِيقٍ إِلَى دَرَجَةِ أَنَّهُ يَنْفُذُ كَالْخَيْطِ فِي ثُقْبِ الإِبْرَةِ . وَفِي الرَّبِيعِ بَيَّضُوا القُمَاشَ فَقَالَتْ فَاسيليسَا لِلْعَجُوزِ :

— بِيعِي يَا جَدَّتِي هَذَا القُمَاشَ وَاحْتَفِظِي لِنَفْسِكِ بِالنُّقُودِ .

نَظَرَتْ العَجُوزُ إِلَى القُمَاشِ وَأَطْلَقَتْ صَيْحَةَ دَهْشَةٍ :

— لاَ يَا بُنَيَّتِي ، هَذَا القُمَاشُ لاَ يَلْبَسُهُ إِلاَّ القَيْصَرُ ، سَأَذْهَبُ بِهِ إِلَى القَصْرِ .

ذَهَبَتْ العَجُوزُ إِلَى القَصْرِ المَلَكِيِّ وَرَاحَتْ تَتَمَشَّى أَمَامَ النَّوَافِذِ فَلَمَحَهَا القَيْصَرُ وَسَأَلَهَا :

— مَا هِيَ حَاجَتُكِ أَيَّتُهَا العَجُوزُ ؟

فَأَجَابَتْهُ العَجُوزُ :

— مَوْلايَ يَا صَاحِبَ الجَلالَةِ . جِئْتُكَ بِبِضَاعَةٍ لَيْسَ لَهَا مَثِيلٌ ، لاَ أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَهَا عَلَى أَحَدٍ غَيْرِكَ .

وَأَمَرَ القَيْصَرُ بِإِدْخَالِ العَجُوزِ إِلَى القَصْرِ ، وَمَا إِنْ رَأَى القُمَاشَ حَتَّى تَمَلَّكَهُ الإِعْجَابُ ، وَسَأَلَ العَجُوزَ :

— كَمْ تُرِيدِينَ لِقَاءَهُ ؟

فَقَالَتْ العَجُوزُ :

— إِنَّهُ لاَ يُقَدَّرُ بِثَمَنٍ يَا مَوْلاَيَ القَيْصَرَ ! لَقَدْ جِئْتُكَ بِهِ هَدِيَّةً .

فَشَكَرَهَا القَيْصَرُ وَصَرَفَهَا مُحَمَّلَةً بِالْهَدَايَا .

وَأَرَادُوا أَنْ يَحِيكُوا مِنْ هَذَا القُمَاشِ قُمْصَاناً لِلْقَيْصَرِ ، فَفَصَّلُوهُ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْثُرُوا فِي أَيِّ

مَكَانٍ عَلَى حَيَّاطَةٍ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ بِهَذَا الْعَمَلِ .

بَحَثُوا طَوِيلاً دونَ جَدْوَى ، وَأَخِيراً أَمَرَ الْقَيْصَرُ بِاسْتِدْعَاءِ الْعَجُوزِ، وَقَالَ لَهَا :

— إِذَا كُنْتِ قَدْ تَمَكَّنْتِ مِنْ غَزْلِ وَنَسْجِ هَذَا الْقُمَاشِ فَلْتَتَمَكَّنِي إِذَنْ مِنْ خِيَاطَةِ قُمْصَانٍ مِنْهُ .

فَقَالَتْ الْعَجُوزُ :

— لَسْتُ أَنَا الَّتِي غَزَلْتُهُ وَنَسَجْتُهُ يَا مَوْلاَيَ . إِنَّهُ مِنْ صُنْعِ ابْنَتِي بِالتَّبَنِّي .

فَقَالَ الْقَيْصَرُ :

— إِذَنْ فَلْتَخِطْهُ هِيَ .

وَعَادَتْ الْعَجُوزُ إِلَى الْبَيْتِ وَرَوَتْ لِفَاسِيلِيسَا كُلَّ مَا جَرَى .

فَقَالَتْ لَهَا فَاسِيلِيسَا :

— كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ هَذَا الْعَمَلَ لَنْ تَصْنَعَهُ سِوَى يَدَيَّ .

وَأَغْلَقَتْ عَلَيْهَا غُرْفَتَهَا وَانْكَبَّتْ عَلَى الْعَمَلِ . وَرَاحَتْ تَحِيكُ بِلاَ كَلَلٍ ، وَسُرْعَانَ مَا أَتَمَّتْ حِيَاكَةَ اثْنَيْ عَشَرَ قَمِيصاً .

حَمَلَتْ الْعَجُوزُ الْقُمْصَانَ إِلَى الْقَيْصَرِ ، أَمَّا فَاسِيلِيسَا فَاسْتَحَمَّتْ ، وَمَشَطَتْ شَعْرَهَا وَارْتَدَتْ فُسْتَانَهَا وَجَلَسَتْ بِجِوَارِ النَّافِذَةِ تَنْتَظِرُ مَاذَا سَيَحْدُثُ . وَرَأَتْ أَحَدَ خَدَمِ الْقَيْصَرِ قَادِماً إِلَى بَيْتِ الْعَجُوزِ ، وَقَالَ عِنْدَمَا وَصَلَ:

— مَوْلاَنَا الْقَيْصَرُ يُرِيدُ أَنْ يَرَى الصَّانِعَةَ الشَّاطِرَةَ الَّتِي صَنَعَتْ لَهُ الْقُمْصَانَ، وَيُكَافِئُهَا مِنْ يَدِهِ الْكَرِيمَةِ .

مَضَتْ فَاسِيلِيسَا إِلَى الْقَصْرِ، وَمَثَلَتْ بَيْنَ يَدَيْ الْقَيْصَرِ . وَمَا إِنْ رَأَى الْقَيْصَرُ فَاسِيلِيسَا سِتَّ

الحُسْنِ حَتَّى هَامَ بِهَا غَرَاماً . وَقَالَ لَهَا :

— لاَ يَا جَمِيلَتِي ، لَنْ افْتَرِقَ عَنْكِ ، سَتُصْبِحِينَ زَوْجَتِي .

وَهُنَا تَنَاوَلَ القَيْصَرُ يَدَيْ فَاسِيلِيسَا البَيْضَاوَيْنِ وَأَجْلَسَهَا إِلَى جِوَارِهِ ، وَأَقَامُوا حَفْلَ الزِّفَافِ . وَسَرْعَانَ مَا عَادَ أَبُو فَاسِيلِيسَا ، وَأَسْعَدَتْهُ قِسْمَتُهَا وَنَصِيبُهَا ، وَبَقِيَ إِلَى جِوَارِهَا . أَمَّا فَاسِيلِيسَا فَأَخَذَتْ العَجُوزَ إِلَيْهَا ، وَظَلَّتْ إِلَى آخِرِ العُمْرِ تَحْمِلُ عَرُوسَتَهَا فِي جَيْبِهَا .